الفن والالتزام في شعر شفيق حبيب

الناقد الأستاذ / نور عامر

الالتزامُ ليس شرطًا من شروط الشعر، ولا يُمكن أن يُفرضَ على شاعر ما، أما وقد اختار الشاعر شفيق حبيب أن يكون ملتزمًا وبلغةٍ ثورية، فهذا يُضفي على شعره نوعًا من الأهمية.. ويَبرز هذا الالتزامُ في موقف الشاعر من قضية الأرض، الوطن، الإنسان، هذه القضية التي تشكل المحورَ الأساسَ في دواوينه الكثيرة، ذات السياقات المتنوعة التي تنتهي إلى مصبٍّ واحد، هو الرفض لكل مظاهر القهر والعدوان، الذي أحاط بشعبنا الفلسطيني منذ النكبة حتى اليوم.

إن قصائدَه المعاصِرة كرؤيةٍ وأداة تعبير، سواءٌ ما كان منها على النظام التفعيلي أو النظام العمودي، هي في الحقيقة مهيئةٌ فكرًا وفنًا وأيديولوجيًا، لسدّ ثغراتٍ معينة في تخوم عالمنا الشعري، الذي هو دائمًا بحاجةٍ لاستقطاب المزيد من الإبداعات الخصبة، وحيث تكون الخصوبة، تكون عملية التقييم أكثرَ قابليةً للنشاط والحركة، وأكثرَ انفتاحًا على المناهج والنظريات النقدية، وإلا ما معنى أن نستخدم النقد الثيمائي، أي المتجذر من حدود الدالة الأدبية، حين لا تكون في الشعر دلالات، وكيف

نطوِّع قصيدةً ما لنظرية "لوك" نظرية التداعي، "الترابط"، إن لم نجد في القصيدة "ظاهرة استدعاء الفكرة، فكرة أخرى في الوعي".

وإن كنتُ أرى في مفهوم "لوك" لهذه النظرية، أكثرَ بهجة للخيال، وأكبرَ تشويقًا للنقد المعاصر، إلا أنني أميل في شعر شفيق حبيب إلى مفهوم "هربرت" لهذه النظرية، باعتبار أن هذا الشعر ليس حالاتٍ نفسيةً بقدر ما هو تجسيدٌ للمعضلة الفلسطينية، وربط الماضي بالحاضر من خلال التراث.

أينَ سُمارُ الليالي ؟؟

وحكايا الزير سالم..

وأبو زيد الهلالي ؟؟

أينَ ولى الدفءُ من حضنِ المواقدْ ؟؟

أينَ جدي...؟؟

يقف النسرُ على شاربهِ

كالمجدِ ماردْ ؟؟

كلُّ ما حَولي سرابٌ

وخرابٌ..

وانكساراتُ الشعاعْ...؟؟

هذه الصورةُ الشعريةُ تعتبر صورةً فنية، بدليل أنها تحدث الافتتان، والافتتان لا يأتي إلا بقوة الفن، لكنه الفنُّ الواقعي لأنه يتجه ناحية المجتمع، ناحية الشعب، وهذا يؤكد ما قاله "إرنست فيشر" : "الفن الواقعي مرتبط بالحركات الشعبية" وهو بخلاف الفن المتشبِّث بالأسلوب والمرتبط عادةً بالنظم الأرستقراطية.

وإذا كان "سدني فنكلشتاين" يرى أن الواقعية في الفن "تضمُّ دائمًا كيانًا من الأفكار عما هو جديد، وكيف يتغير العالم" يصبحُ من الضرورة بمكان أن نفهمَ العالم فهمًا يُتيح لنا رؤيةً صافيةً غيرَ مُشوَّشة، وهذا يتحقق بطرق مختلفة، منها طرحُ الأسئلةِ كما في قصيدة " لماذا ارتحلنا..؟؟ "، إنما السؤال هنا ليس استفسارًا بقدر ما هو ذهولٌ ناتجٌ عن هَوْل الصّدمة / الفاجعة :

لماذا ارتحلنا

عن البحرِ.. والنهرِ والبرتقالْ؟؟

لماذا غدَوْنا رمادَ المقادير

في منفضات المُحالْ..؟؟

ومن فنون الشعر أن يضعَ الشاعرُ التعبيرَ المناسبَ في المكان والظرف المناسب، على أن يكون التعبيرُ مجهولاً في المقام المنشود حتى تلك اللحظة، أي لحظة التعبير عنها... ويصبح

التعبير، أكثرَ جاذبيةً حين يُغلفُ بالرّمز، ومن خلال رؤيةٍ مستقبلية تتمثلُ في كلمةٍ موجزةٍ دالةٍ كقول الشاعر :

أنا باقٍ يا فلسطينُ اشهدي !!
إنما الزائلُ خضراءُ الدِّمَنْ.

الرمز في خضراء الدِّمَن أي المرأة الحسناء في المنبت السوء، وهذه استعملت في مواطن التحذير " إياكَ وخضراءَ الدِّمَن "، لكن شاعرنا لم يقصد المرأة، أظنه قصدَ سياسةَ الاضطهاد التي يحاولون تجميلها، وأن يُخرج الشاعر كلمةً من سياقها المحدَّد، لتخدمَ غرضًا آخرَ ربما هو أكثرُ نفعًا وإلحاحًا، وهذا يُعتبرُ نوعًا من التجديد في الشعر العربيّ المعاصر.

جريدة كل العرب

٢-٥-٢٠٠٣